وددت لو كنت كاتبه!

بقلم:
غابرييل غارسيا ماركيز

كانت جميلة، ممشوقة، ذات بشرة غضّة بلون القمح وعينين لوزيتين خضراوين، وشعر أسود منسدل حتى الكتفين، تلفّ وجهها هالة من الجمال الشرقي القديم الذي يبدو متحدّراً من بوليڤيا أو من الفيليبين. كانت متأنّقة بذوق مرهف: سترة من الأوس، قميص حريري بأزهار صغيرة، بنطلون من الكتّان الخالص، وحذاء واطىء بلون نبتة الجهنميّة. «ها هي أجمل امرأة رأيتها في حياتي»، فكّرت وأنا أرى الفتاة تنتظر ركوب الطائرة المتجهة إلى نيويورك من مطار شارل ديغول في باريس.. أفسحت لها بالمرور قبلي، وعندما وصلت إلى المقعد الذي عُيِّن لي على بطاقة الركاب، وجدتها جالسة على المقعد المجاور. توصّلت إلى التساؤل وأنا مقطوع الأنفاس: هذا التجاور اللامتوقع إلى أيّ منّا سيحمل التعاسة؟

جلَسَتْ، كمن تعوّد الأمر من سنين عديدة، واضعة كل شيء في مكانه بعناية فائقة، حتى باتت مساحتها الشخصية مرتّبة كبيت مثالي حيث يوجد كل شيء، في متناول اليد. قدّم المضيف الشامبانيا متأهّلاً بالركّاب حين كانت منصرفة إلى تنظيم أمورها. رفضت الشمبانيا وحاولت شرح شيء ما، بفرنسية ركيكة. عندها تحدّث المضيف إليها بالإنكليزية فشكرته بابتسامة مشعّة، ثم طلبت منه كأس ماء وأضافت أنها تود ألاّ يوقظها أحد مهما كان الأمر أثناء الطيران. بعد ذلك فتحت حقيبة كبيرة مربّعة بزوايا نحاسية كتلك التي على صناديق جدّاتنا وابتلعت قرصين ذهبيين من علبة فيها أقراص كثيرة أخرى من مختلف الألوان. كانت تقوم بكل شيء بطريقة منتظمة ودقيقة كأن لا شيء غير متوقع حدث معها مذ ولدت.

وأخيراً، وضعت الوسادة في فجوة عند نافذة الطائرة وتدثّرت بالغطاء حتى خصرها، دون أن تخلع حذاءها. استوت جانبياً في المقعد في وضع شبه جنيني، ونامت دفعة واحدة دون تنهيدة، دون أدنى تغيير في وضعها خلال الساعات السبع المرعبة في الطائرة والدقائق الاثنتي عشرة اللامتناهية نتيجة التأخر الذي استغرقه الاقلاع نحو نيويورك.

كنت قد اعتقدت على الدوام أن لا شيء في الوجود يفوق جمال امرأة جميلة، بات مستحيلاً أن أفلت ولو لدقيقة من سحر هذا المخلوق الخرافي النائم إلى جانبي. كان نومها ثابتاً للغاية حتى اني خشيت أن تكون قد تناولت أقراصاً للموت بدل النوم. تفحصتها عدة مرّات، سنتمتراً سنتمتراً، كانت علامة الحياة الوحيدة التي لاحظتها هي ظلال الأحلام العابرة فوق جبينها كغيوم فوق الماء. كانت تضع حول عنقها عقداً رفيعاً جداً يكاد لا يُرى فوق بشرتها الذهبية. كانت أذناها رائعتين وغير مثقوبتين. وكانت تضع خاتماً في يدها اليسرى. ربما أنها لم تكن تبدو قد تجاوزت الثانية والعشرين، عزّيت نفسي بفكرة أن هذا الخاتم ليس خاتم زواج بل حلية خطوبة عابرة وسعيدة. لم تكن متعطّرة: بل كان يفوح منها لهاث لا يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى الرائحة الطبيعية لشبابها. «أنت عبر نومك والمراكب عبر البحار»، فكّرت على علو عشرين ألف قدم فوق المحيط الأطلسي محاولاً أن أتذكّر بالترتيب السونيتة التي لا تنسى لجيراردو دييغو. «معرفة أنك تنامين، واثقة، أكيدة، أنت، انحناءة نسيان وفية، خطاً صافياً قريباً جداً من ذراعيّ المضمومتين». كان وضعي شبيهاً جداً بالسونيتة حتى أني خلال نصف ساعة استرجعتها

في ذاكرتي حتى النهاية: أي انسحاق راعب لساكن الجزيرة، أنا المتأرِّق المجنون، على الشواطىء الصخرية، المراكب عبر البحار، أنت عبر نومك». لكنّي خلال خمس ساعات من الطيران تأمَّلت فيها الجميلة النائمة، أدركت بسرعة وبقلق منزوع من المستقبل أن وضعي النعيمي لم يكن شبيهاً بسونيتة جيراردو دييغو، بل بعمل أدبي رئيس في الأدب المعاصر وهو «منزل الجميلات النائمات» للياباني ياسوناري كاواباتا.

اكتشفت هذه الرواية عبر طريق طويل ومختلف ولكن يتفق على كل حال مع جميلة الطائرة النائمة. منذ عدة سنوات، اتصل بي آلان جوفروا بالهاتف ليقول لي إنه راغب في تقديمي إلى كتّاب يابانيين، أتوا لزيارته. كل ما كنت أعرفه آنذاك عن الأدب الياباني، باستثناء القصائد التعيسة أيام البكالوريا، لا يتعدّى بضع أقاصيص لجونيشيرو تانيزاكي مترجمة إلى القشتالية. في الحقيقة، كل ما كنت أعرفه بطريقة أكيدة عن الكتّاب اليابانيين أنهم انتهوا كلهم إلى الانتحار. وقد سمعت عن كاواباتا للمرة الأولى عندما نال جائزة نوبل في سنة ١٩٦٨، وحاولت عندها أن أقرأه قليلاً ولكن سرعان ما أصابني النعاس. بعد ذلك بقليل بقر أمعاءه بسيف طقوسي، تماماً كما فعل روائي آخر مميَّز وهو أوزاما دازاي سنة ١٩٤٦، بعد عدة محاولات فاشلة. قبل كاواباتا بسنتين وكذلك بعد عدة محاولات فاشلة قتل الروائي الأكثر شهرة في الغرب يوكيو ميشيما نفسه على طريقة الهاراكيري الكاملة، بعدما وجّه خطبة وطنية إلى جنود الحرس الامبراطوري. إذاً عندما اتصل بي الآن جوفروا عبر الهاتف، كان أول شيء رجع إلى ذاكرتي هو عبادة الموت عند الكتّاب اليابانيين. قلت له: «أنا آتٍ بكل سرور، شرط ألاَّ ينتحروا». والحقيقة أنهم لم ينتحروا، بل أمضينا ليلة ساحرة فهمت خلالها أنهم جميعاً مجانين. كانوا مقتنعين هم أنفسهم بذلك. قالوا لي: «لذلك كنا نود التعرّف إليك». وأقنعوني في النهاية أن القرّاء اليابانيين يعتبرونني كاتباً يابانياً..

ورغبة مني في فهم ما أرادوا قوله لي، ذهبت في صباح اليوم التالي إلى مكتبة مختصَّة في باريس واشتريت جميع الكتب المتوفرة هناك لـ: شوزاكو اندو، كنزبوروأو، يازوشي اينو، رنوزوكي أكوتا غاوا، مازوجي ايبوري، أوزامو دازاي، هذا ما عدا الكاتبين البديهيين كاواباتا وميشيما. لم أقرأ شيئاً آخر خلال سنتين، ولا أزال مقتنعاً حتى الآن بأن شيئاً ما يجمع الروايات اليابانية برواياتي، شيئاً ما لا أستطيع أن أفسِّره ولم أحسّ به في حياة البلاد حين قمت برحلتي الوحيدة إلى اليابان، ولكن هذا الشيء يبدو لي أكثر من جلي.

على كل حال، الكتاب الوحيد الذي وددت لو أكون كاتبه هو «منزل الجميلات النائمات» لكاواباتا، الذي يحكي قصة منزل غريب في ضواحي طوكيو، يتردَّد إليه بورجوازيون يدفعون أموالاً طائلة للتمتع بالشكل الأكثر نقاء للحب الأخير: قضاء الليل وهم يتأمَّلون الفتيات الشابات الأكثر جمالاً في المدينة واللواتي يرقدن عاريات تحت تأثير مخدِّر إلى جانبهم في السرير. لا يملكون حق إيقاظهن ولا لمسهن. ولا يحاولون على أية حال لأن الاكتفاء الأكثر صفاء لهذه المتعة الناجمة عن الشيخوخة هو إمكانية الحلم إلى جانبهن.

لقد عشت هذه التجربة مع الجميلة النائمة في الطائرة المتجهة إلى نيويورك، غير أن ذلك لم يمتعني. على العكس، الشيء الوحيد الذي تمنّيته خلال الساعة الأخيرة من الطيران هو أن يوقظها المضيف لأتمكّن من استرجاع حريتي أو ربما شبابي. لكن ذلك لم يحدث. ذلك أنها استيقظت من تلقاء نفسها عندما لامست الطائرة الأرض. تأهَّبت ونهضت تراقبني. كانت الأولى التي خرجت من الطائرة لتضيع بين الجموع. تابعت على الطائرة نفسها طريقي إلى مكسيكو، مجتراً دفعات الحنين الأولى لجمالها إلى جانبي على المقعد الذي لا يزال فاتراً إثر نومها، دون أن أتمكّن من أن أنتزع من رأسي ما قاله الكتّاب المجانين عن كتبي في باريس، قبل أن تحط الطائرة، وعندما قدموا لي بطاقة النزول، عبَّأتها بنوع من المرارة. المهنة: كاتب ياباني. العمر: اثنان وتسعون عاماً(*).

(*) مقدمة الترجمة العربية لرواية «النائمات الجميلات» التي تصدر قريباً عن دار الآداب من ترجمة ماري طوق.